الشيخ عبد الحسين صادق

بطولة الأنبياء في القصة القرآنية

الاسرائيليات في تفسير القرآن

□ **كيف ندرس بطولة الأنبياء في القصة القرآنية بين فرديته المتصلة بإمداد الغيب وبين جماعيته المتصلة بقوة الأنصار والمؤمنين؟**

نرى البطل عادةً، في أيّة قصةٍ نقرؤها اليوم، متميزاً، عن سائر الأشخاص الذين يتحركون على مسرح أحداثها، ببعض العناصر والميزات والصفات التي تجعل منه الإنسان القادر على المضي إلى الأمام، مع تتابع أحداث القصة ضمن الظروف والصعاب والعُقَد التي يرسمها القاص في حبكته، وصولاً إلى الهدف الذي يرمي إليه من خلال القصة ككل.

فالعناصر والميزات ركيزة أساسية لمعالجة أحداث القصة والوصول إلى الهدف المشار إليه فيها.

استناداً إلى ذلك، فالنبي بطل في أمته، يجب أن تتوافر في شخصيته شروط هي ـ ربما ـ ما عبرتم عنه ـ بفردية النبي في شخصيته بمكوناتها وصفاتها وملامحها الخاصة ـ والمدد الغيبي هو وإن كان في حد ذاته أمراً خارجاً عن ذات النبي وشخصيته، إلا أنه في النهاية يضفي على هذه الشخصية صفةً ولوناً يجعلها ذات تحديد [ونكهة] وإطار معينين، فيقال عنها بلحاظ اتصالها بالمدد الغيبي إنها شخصية مؤيدة بالغيب، ومتصلة بالغيب، ومسددة بالغيب وتختصرها كلمة نبي أو رسول

وربما كان هذا الاتصال والمدد وثيقاً ملازماً لشخص النبي إلى حد يوحي لنا أن شخصية النبي قد أعدت، بل صيغت، بإعداد وصياغة غيبية وذلك حين يحاط منذ طفولته أو

منذ أول مصدره بالعناية والإعجاز، الذي لا يرى في غيره من البشر؛ وذلك كما نتلو ونقرأ عن موسى وعيسى عليهما السلام، أو كما نقرأ عن طفولة سيد الأنبياء في بعض المصادر والروايات.

وعلى الرغم من الصلة بل الضرورة القائمة بين فردية النبي والغيب، إلا أن الغيب لا يتدخل في ساحة الأحداث بشكل تكويني جذري وشامل، بحيث يعود إليه أولاً وأخيراً ترتيب كل الظروف وتغيير النفوس ورسم الأحداث، وفق رغبة السماء، ولصالح الرسالة المنزّلة

إذاً لما أتيح للإنسان أن يتصرف ضمن سير الأحداث بشيء ما، ويعمل على تطويعها وتطويرها وفق مشروع الرسالة المنزلة وتوجيهها، ودفعها نحو عملية الإصلاح، والتغيير الذي دعت إليه تلك الرسالة وطالبت الناس به، ولما أضافت الإنسانية ـ بالتالي ـ جديداً إلى مخزون تجاربها عبر الزمن، ولما توفر للإنسان فرصة الاختبار والابتلاء والتضحية والمعاناة، التي من خلالها تتم عملية التغيير، وبحصيلتها وبركتها يتم التقدم الاجتماعي وبناء الإرادة والكيان الخيّر للفرد والجماعة والأمة، ذلك لأن الغيب هو الذي يحسم كل الأمور لصالح مشروع الرسالة وصنع انتصارها وإشادة صرحها.

وعلى هذا يسقط المنطق الذي يبرر تعدد الرسالات وتعاقبها عبر الزمن بأن مهمة ودور المتقدم منها هو إعداد نفسية وقابلية وفكر المسيرة البشرية لتقبل المرحلة الأخيرة من تلك الرسالات، والانسجام معها والتفاعل معها بشكل موضوعي مقبول، إذ كان يكفي إنزال الديانة الأخيرة (وهي الإسلام) في أول المسيرة البشرية، وتوفير كل ما يلزمها من أسباب رواج الانتصار والقبول والانتشار، وإشادة حرصها وبناء كيانها الزاهي بالمدد الغيبي والإرادة السماوية.

وبهذا المنطق تسقط كل الديانات التي سبقت الديانة الأخيرة وتكون عبثية، بل ويسقط بهذا المنطق كل ديانة، إذ الغيب قادر على صنع الإنسان المستقيم الذي لا يحتاج إلى رسالة ورسول؛ إلا أن هذا كله خلاف إرادة الله سبحانه وحكمته في الخلق: ﴿ . **ليبلوكم أيكم أحسن عملاً**﴾ ﴿**وما خلقت الإنس والجن إلا ليعبدون**﴾ ﴿. . **ليخرج الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الظلمات إلى النور**﴾ ﴿**ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة**﴾.

إذاً فالغيب لا يتدخل لخلق الظروف والجو الملائم للرسالة وإنما يتحرك داخله ببعض التفاصيل الملحة وبالمقدار الضروري المطلوب لحماية الرسول والرسالة، كي تواصل الرسالة حركتها وإتمام عملية الإصلاح والتغيير المرجوّة منها بشكل موضوعي ومنطقي؛ كأن تتحول نار إبراهيم عليه السلام، برداً وسلاماً، وحفظ موسى عليه السلام وهو طفل رضيع بعد إلقائه في البحر، وإرجاعه إلى أمه سالماً،

وشل يد اليهودي الغادرة وتعطيل حركتها حين همّت بضرب النبي بالسيف غيلة ونحو ذلك من تفاصيل وصور.

وعلى هذا فإن النبي، فيما عدا نحو هذه التفاصيل الغيبية التي لا تتدخل بحسم في شأن الواقع السائد والعمل على تغيير الظروف والأجواء القائمة، والمتتابعة ضمن القانون المنطقي لتتابع الأحداث، وإنما ـ وكما ذكرنا ـ لمجرد المساعدة على حماية الرسالة ومضيها قدماً في معالجة الوضع المنحرف وإتمام عملية الإصلاح والتغيير.

على هذا فإن النبي عليه أن يتصرف ومن خلال كل قدراته الذاتية وميزاته الشخصية والتي أهَّلَتْهُ بدورها لمنصب النبوة والقيادة، عليه أن يتعامل مع الظروف ومع الناس كبشر، ويكافح معهم كفاح البشر، ويعمل بجد ومثابرة، وحب وعطف وإخلاص، لدفع كل الموازين والمعطيات إلى صالح رسالته التي يبشر بها، وصالح الإنسان التي أرسلت إليه..

وعلى هذا فهو في معرض ذلك كله وعلى خط الكفاح الدؤوب كسائر البشر وفي مقدمتهم، يأمل ويتألم، ويحزن ويفرح ويخطط ويعاني ويتذوق لذة الانتصار ومرارة الانكسار، وهنا تتجلى جماعيته ويبرز دوره وتقيم بطولته على أساس النجاح في معالجته للأمور والإمساك بزمامها، وقدرته على استقطاب الناس وملء قلوبهم بالإيمان والعزم على نصرة الرسالة، وبلوغ الهدف النبيل الذي تطرحه من أجل خلاصهم وسعادتهم.

داخل هذا الإطار وعلى المسرح الاجتماعي الممتد [إلى كل الآفاق] يعيش النبي جماعيته: يعيشها بأبعد مدىً لها، وبأعمق أحاسيسها وعواطفها، فيحتضن الجمهور والأنصار بقلبه الواسع الكبير، وتلتف حوله الجماهير وتفديه الأرواح والمهَج، أكثرهم وعياً لجهاده ومعاناته، ومعرفةً بصبره وخلقه وإنسانيته كمعرفة علي بالنبي (ص).

إذاً فالنبي حين يتدخل الغيب لنصرته وتأييده في بعض التفاصيل والمواقف الملحة، لا يؤثر على دوره كإنسان ذي شخصية بشرية متميزة في أخلاقها وصفاتها الخاصة، يتعامل مع الناس على أساس اجتماعي، ويقودهم كإنسان داخل الظروف والأجواء السائدة إلى نصر الرسالة بشكل طبيعي وموضوعي.

وضمن هذه الموازنة قاد النبي محمد (ص) مجتمعه في عملية التغيير الإنسانية الكبرى، فكان مع كل المدد الغيبي الذي رافق دعوته وخط جهاده الإنساني الطويل، كان بطلاً إنسانياً عظيماً بل أعظم بطل اجتماعي شهدته الدنيا على الإطلاق.. وخير شاهد من عصرنا الحاضر على ذلك كتاب: The 100. Arranking of the most influentiol persons in history الذي عدّ فيه مؤلفه المسيحي Michael H. Hart النبي محمداً (ص) في رأس قائمة المائة، أي أنه أول شخص في المائة

الأوائل الذين أثروا في المجتمعات البشرية على مر التاريخ. ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم﴾ [التوبة: ١٢٨].

□ مع التحول التاريخي لحركة الدعوة الإسلامية من أم القرى إلى المدينة واجه الإسلام عصابات يهود الناشبة في مستعمراتها بشمال الحجاز ومن الجيل الأول للذين أسلموا من - يهود - بدأت تدخل الفهم القرآني عناصر من تأويلاتهم وشروحهم عرفت في المصطلح باسم الإسرائيليات فما هي الإسرائيليات في تفسير القرآن؟

- «الإسرائيليات» هي ذلك الخليط اللاهوتي الذيَ توارثه أهل الكتاب عبر زمن مديد وصل بعده إلى علمائهم وأحبارهم الذين عاشوا في ظل الإسلام، وصل غريباً مستهجناً مملوءاً بالأساطير، ثم تسرب منه إلى داخل المحيط القرآني، ليس بالضرورة عبر من أسلم من يهود ونصارى، كما قد يوحي السؤال، بل عبر بعض من لم يسلم منهم أيضاً في معرض كيدهم للإسلام مثل يوحنا الدمشقي، كردة فِعْلٍ حاقدة إزاء دين، لم يكونوا آمنوا به، بل حتى عبر بعض الصحابة والتابعين وتابعيهم بشكل أو بآخر.

أما كيف بدأ دخول الإسرائيليات إلى عالم التفسير القرآني، فيبدو أنه كان نتيجة ميل بعض الصحابة، ومَنْ بعدهم، إلى الاستشهاد في مجال إفحام أهل الكتاب وإقامة الحجة عليهم بما هو مسلَّمٌ عندهم وواردٌ في كتبهم ومخطوطاتهم الدينية.

ومن هنا ظهر اهتمام لدى بعض الصحابة في الحصول على مثل هذه الكتب والموروثات الدينية، ويروى في ذلك: «أن عبد الله بن عمر أصاب في واقعة اليرموك التي فَتَحت الشام زاملتين من كتب أهل الكتاب فكان يتحدث منهما بما فهمه».[1]

وربما كان أساس هذا الميل مستنداً إلى تلك الحادثة التي ترافع فيها إلى النبي (ص) بعض اليهود في شأن زانٍ وزانية من أشرافهم، فحكم (ص) عليهما الرجم. ولما اعترضوا على ذلك أمرهم بالرجوع إلى توراتهم، وحين نظروا فيها لاحت لهم آية الرجم.

وهكذا راجت الإسرائيليات، فكانت مثل تلك الكتب التي أشرنا بما فيها من علامات وأخلاط لاهوتية خزاناً يستهدي بعض الصحابة والتابعين للاحتجاج بها على اليهود والنصارى في مقام الجدل والإفحام.

وربما امتد الأمر، أي أمر الاحتجاج والإفحام بالإشهاد في مقام الجدل، إلى فهم آية أو أخرى على أساس هذه الإسرائيليات من قبل هذا الصحابي أو ذاك التابعي تعديلاً على اجتهاده واستحسانه الخاص، فأجاز لنفسه أن يفهم هذه الآية أو تلك على أساس المعلومات الواردة في كتب أهل الكتاب،

(١) «مع المفسرين والمستشرقين» ص ٢٧ - ٢٨ للدكتور زاهر عواض الألمعي.

فتسربت عبر هذا الطريق إلى تفسير القرآن بعض الإسرائيليات، أضف إليه طريقاً آخر هو تلقي الذين أسلموا من أهل الكتاب لبعض الآيات القرآنية على أساس خلفيتهم وثقافتهم الدينية، والعمل على [فهمها] وتطويعها.

وربما عفوياً، بما ينسجم مع ما هو المركوز في أذهانهم من تلك المعلومات والمعتقدات، على أن بعض علماء أهل الكتاب كان يتقصد الدسّ والافتراء والتشويه، كالقديس يوحنا الدمشقي الذي سبق ذكره، ويتحين الفرص لتمرير مفترياته بقصد الإساءة لدين الإسلام، فقد كان أمثال يوحنا هذا، الذي عاش في عهد مروان بن الحكم، يجادل المسلمين بحرارة ويحتج عليهم بالإسرائيليات.

يقول المستشرق البروفسور (الفريد غيوم)، بنبرة التعاطف والتمجيد لسلفه يوحنا.. «انه كان [أي يوحنا هذا] يستطيع أثناء مناظرته إفحام مناظريه المسلمين ببراهين تأتيه مطواعة مستسلمة»[1]. على سبيل المثال في كيفية تسريب واحدة من الإسرائيليات من قبل هؤلاء المتربصين للدين الجديد، الذي لم يؤمنوا به وحقدوا عليه، هو أن ينكر يوحنا في مجالسه الجدلية التي اتسع لها صدر المسلمين عند تفسير آية: ﴿**وإذ تقول للذي أنعم الله عليه وأنعمتَ عليه أمسِك عليك زوجك؛ واتق الله وتُخفي في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه**﴾ [الأحزاب، آية: ٣٧].

إن النبي (ص) عشق زينب [زوجة وليه بالتبني زيد بن حارثة]... طبيعي أن لن يجد القديس حرجاً في هذه الفرية على سيد الأنبياء، وهو الذي اختمر ذهنه بما في كتب العهدين من فضائح ومخاز لطخت سير الأنبياء، فداود عليه السلام كاد «لأوريا» قائده ـ وكان يحب زوجته ـ فأرسله إلى القتال، فلما قتل تزوج بها! فربما لفق الفرية ونسجها على منوال هذه القصة المخزية، وألقاها في مجالس الجدل مع المسلمين، ثم يأتي مثل قتادة، أحد التابعين المتأخرين، ليرسل ذلك إرسال المسلمات، وتنطلي مع الأيام على مثل الطبري، فيروي ذلك في تفسيره من دون رويّة، وتمحيص، على ما هي طريقة بعض المفسرين من اعتماد المأثور في التفسير بأوسع نطاق في قبال من يعتمد التنخيل والتدقيق، ومحاسبة هذا المأثور قبل قبوله والأخذ به، ولذا أسقط ابن كثير هذه الرواية، وهو لا يعتني بأضرابها مما ورد بأسانيد مقطوعة، أي غير متصلة بالنبي (ص) أو متصلة به لكن كان في طريقها ضعيف أو وضاع مثل قتادة صاحبنا الذي لم يلتفت إلى روايته الكثيرون من أعلام الرواية والحديث بل ورواية من روى عن قتادة مثل مالك.

---

(١) مع المفسرين والمستشرقين... ص ٣٠.